الحياة الثقافية بمدينة متليلي مطلع القرن العشرين
ـ الإمام مسعود بلعور أنموذجا ـ

أ.د. محمد عبد الحليم بيشي
قسم العقائد والأديان / جامعة الجزائر1

تمهيد:

عرفت الحياة الثقافية في الصحراء الجزائرية انتعاشا ملحوظا في مطلع القرن العشرين مقارنة بالمنتصف الأخير من القرن التاسع عشر والذي كان كالحا في لياليه على العلم وأهله بسبب الحيف والجور الفرنسي، وبسبب انصراف عموم الساكنة إلى مقاومة المستعمر الفرنسي الذي وضع نصب عينيه محو الهوية الدينية عن طريق دك حصون الثقافة كالمساجد والزوايا والمحاضر، وعن طريق زرع قوافل الآباء والأمهات البيض مثل جمعية إخوان الصحراء المسلحين التي أسست ببسكرة سنة (1891م)، ولم يكن ذلك إلا بعد دراسة عميقة للمجتمع الصحراوي بالبعثات والكشوف والرحلات، مثل الرحلة الطويلة للقس دوفو كو، الذي أُنهي أمره بالسيف من قبل الإخوان السنوسيين بتمنراست سنة (1916).

ولذلك وضع العلماء والأئمة وشيوخ الزوايا مسألة بناء الحصانة الدينية وتنمية الهوية الإسلامية نصب أعينهم قبل خوض المعركة الجديدة، بعدما خسرت الأمة حروبها، وكان انهزامها ميكانيكيا أمام المدافع الفرنسية التي حصدت كل ما وجدته أمامها.

ولم تكن مدينة متليلي استثناء من هذا الوضع القاتم، إذ أنه وبعد خمسين سنة من انخراطها في المقاومة الشعبية بدءا من اشتراك فرسانها في جيش الأمير عبد القادر إلى مقاومة الشيخ بوعمامة، وبعد إنهاك الوضع الاقتصادي بالقضاء على تجارة

القوافل العابرة للصحراء، كان العود إلى بناء الحصانة الدينية والهوية الثقافية عن طريق بعث العمل العلمي التكويني للناشئة استعدادا ليوم الفصل ويوم التحرير الأكبر. وفي هذا البحث سنعرض للحياة الثقافية بمدينة متليلي عن طريق دراسة أنموذج لواحد من علمائها أسهم في خدمة المجتمع ثقافيا باستثمار الموروث الديني لبناء جيل جديد قوي متشبع بدينه معتز بثقافته لا ينكسر أمام المغريات الغربية ولا المهددات الفرنسية.

أولا: مدينة متليلي والجرافة الفرنسية (1853-1900)

وقفت مدينة متليلي حاضرة وبادية سدا منيعا أمام التوغل الاستعماري قرابة نصف القرن. حيث لم تصل فرنسا إلى مدينة عين صالح إلا سنة (1900م)، إذ أنه بعد سقوط الأغواط سنة (1852م)[1]، وبعد معاهدة والحماية والاستسلام بين ميزاب وفرنسا سنة (1853م)[2] أعاقت قبائل الشعانبة فرنسا من التوغل في الصحراء منذ أن انخرطت متليلي في كل حركات المقاومة بدء من مقاومة الشريف بن عبد الله المتمركزة في ورقلة والمدعومة من الحركة السنوسية، ثم مقاومة أولاد سيد الشيخ الأولى (1864م)[3]، وثورة ناصر بن شهرة (1864م)[1]، ثم ثورة

1- سقطت الأغواط بعد حملة شرسة قادها الجنرال بليسيي بهد إنهاء مقاومة الأمير عبد القادر سنة (1947م)، مما جعل المدينة مفتوحة أمام الاحتمالات العسكرية التي انتهت بإخضاعها بقسوة وشراسة وتضحيات جسام في شهر نوفمبر لتسقط يوم 4 ديسمبر 1852م، وقد أخلى المستعمر نصف سكانها وأباد الكثيرين. وصارت منطقة عسكرية الحكم. انظر سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ط1،بيروت،دار الغرب الإسلامي،1992.ج1ص389

2- حاج سعيد يوسف : تاريخ بني مزاب ونضالهم من أجل الحق في التباين.ط1، غرداية، المطبعة العربية، 1992.ص 100.

3- في مقاومة أولاد سيد الشيخ الشراقة الأولى انظر: بوعزيز يحى: ثورات الجزائر في القرنين (19-20). ط2، الجزائر، منشورات المتحف الوطنى للمجاهد،1996.ج1 ص169/ بوعزيز يحي كفاح الجزائر من خلال الوثائق. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،1986.ص 163.

الشريف بوشوشة [2]، والتي كانت ظهيرا لثورة (1871م) العارمة في الشمال[3]، وأخيرا ثورة الشيخ بوعمامة(1881م)[4]، هذا فضلا عن انتفاضاتها المتتالية والتي سبّبت لها الدمار والإخلاء فيما عرف بسنوات "الخلية"، حيث هُجّرت القبائل وأقفرت الديار، وانقطعت التجارة الصحراوية العابرة لإفريقيا الصحراء والساحل والتي كانت المورد الرئيس لاقتصاد مدينة وبادية متليلي. حيث اندثرت حركة القوافل التجارية نحو السودان أيضا بسبب حروب التوسع الفرنسي فيما بعد عين صالح وخاصة مع تحول القوافل إلى المغرب وليبيا وانفتاح التجارة عبر موانئ إفريقيا الغربية، إذ هيمنت فرنسا على إفريقيا الغربية شمال نهر النيجر، وصارت سواحل القارة مفتوحة أمام التوسعية الأوربية طبقا لمؤتمر برلين (نوفمبر1884-فبراير1885)[5].مما نتج عنه تدهور المستوى المعيشي للسكان نتيجة مصادرة

1- في ثورة ابن شهرة التي انطلقت من سهوب الأغواط انظر بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين ج 1 ص211./ بوزيد قصيبة: الثائر بن ناصر بن شهرة . مع المعلوم أنه هاجر إلى الشام وبها توفي سنة (1884م)

2- بوشوشة زعيم وطني ولد بجبال العمور في الأطلس الصحراوي ، تزعم الثورة بهد سقوط الأغواط، وأرهق الفرنسيين في ثورة (1871م)، قبض عليه وأعدم بسجن قسنطينة في (29 جوان 1875م)، انظر بوعزيز : ثورات الجزائر ج 1 ص216.

3- لجأ المقرانيون إلى الصحراء بعد مطاردة الفرنسيين، حيث كانت زمالة بومزراق المقراني تضم عددا ضخما من الإبل والأثقال، والنساء والأطفال قدرت بتسعة آلاف جمل، ومائة وخمسي فارس من المقرانيين، وقد واحتضنهم الشعانبة والقائد الشريف بوشوشة في وادي ريغ وورقلة وحتى وادي مية، وانتهت المغامرة والمطاردة بالقبض على الثوار في صائفة (1872م). انظر: جرمان ميلي: ترحيل قرووي وثوار القبائل الكبرى إلى كاليدونيا الجديدة (تر أيت شعلال)، الجزائر، منشورات وزارة المجاهدين،2013. ص 116-121.

4- في ثورة الشيخ بوعمامة انظر عبد الحميد زوزو: ثورة بوعمامة، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.ص139/ إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية (1837-1934) ط1، الجزائر، دار هومة، 2012. ص1269.

5- جمال قنان :قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، الجزائر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1994،ص.145.

الأملاك وقطع النخيل جراء المشاركة في الثورات، فمتليلي مثلا قطعت نخيلها مرارا في سنوات الإخلاء والتهجير، وتناقصت الثروة الحيوانية من الإبل والأغنام نتيجة إبادتها عقابا للسكان، أو استعمالها لغزو ما تبقى من الصحراء كقورارة وتوات وتيديكلت والهقار، في نهاية التسعينات. هذا إضافة إلى فرض الضرائب الباهظة على السكان (الضرائب العربية كالعشر على الغلات، والحكور على أراضي العروش والقبائل، واللازمة المفروضة على كل بيت أو خيمة، واللازمة المحددة وهي ضريبة حربية على القبائل التي رفضت الاحتلال وقاومته. وقد صاحبت هذه الضرائب أزمة نقدية في الصحراء بسبب إلغاء فرنسا التعامل بعملة (القورارى) التي صارت غير شرعية، مما تسبّب في تكدسها في أيدي السكان وأدى إلى أزمة اقتصادية حادة.

كلّ هذا السواد الحالك والليل الفرنسي القاتم انبلج بعده فجر جديد في ميلاد حركة علمية في غسق الظلمة الفرنسية أثمرت بعد استواء سوقها واشتداد عودها حراكا وطنيا قاد إلى التحرير، وكان من رجالاته الشيخ مسعود بلعور والحلقة العلمية التي ازدهرت في رحاب ومحاضر ومدارس المسجد المالكي العتيق، والتي تخرج بإشعاعها عشرات المجاهدين والشهداء الذين قادوا معركة التحرير الكبرى بعد بضع سنين.

ثانيا: التعريف بالشيخ مسعود بلعور:

1- مولده ونشأته:

ولد الإمام مسعود بن عبد القادر بن عمر بن العيد بلعور في سنة (1889م)[1] بحي الرزيقي بمدينة متليلي الشعانبة، وهي مدينة تتوسط منطقة الشبكة، وتعتبر من المدن العريقة في شمال الصحراء، وقد عمرتها قبائل الشعانبة السُلمية[2] منذ أواسط القرن السادس الهجري[3].ويعود نسبه لفرقة أولاد عيسى بن موسى[4] من عرش أولاد علوش الشعانبة[5].

1- السنة ولد فيها العظماء أمثال الإمام ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، وطه حسين، وعباس محمود العقاد. وإيليا أبو ماضي، ومخائيل نعيمة، وأرنولد توينبي، وحتى الفاشي الذي شقيت البشرية به أودلف هتلر ا.

2- هي قبائل مشهورة في الجاهلية و هم أبناء عمومة مع قبائل هوازن ، قال الحمداني و هم من أكثر قبائل قيس عددا و لهم حرة تسمى بحرة بني سليم، ومن شعرائهم العباس بن مرداس والخنساء، و كان النبي صلى الله عليه وسلم يفتخر و يقول : أنا ابن العواتك من سليم . راجع : عمر رضا كحالة :معجم قبائل العرب قديما وحديثا، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1984.ج2 ص192. وانظر أيضا :توفيق المدني: كتاب الجزائر، دار البصائر، 2012. ص185.

3- إسماعيل العربي : الصحراء الكبرى و شواطئها، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.ص 38 / توفيق المدني : الجزائر ص173 .

4- انظر: بن ولهة عبد الحميد: أبناء الشعانبة ومراحل التطور الحضاري لبلاد الشبكة سكانيا وعقائديا وعمرانيا. ط1، ، الجزائر-متليلي، دار صبحي للطباعة والنشر، 2014. ص121.

5- إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها ص164. والفرع أحد البطون الكبرى لما يعرف بالصف الشرقي (وهو عبارة عن تكتل قبلي لتحالفات سياسية واجتماعية توازي الأحزاب المعاصرة)، وفي هذا السياق ذاته يذهب الكثير من الباحثين إلى اعتبار أن هذا الانتشار للشعانبة في الصحراء و استيعابهم لجل السكان الأصليين من بربر زناتة وصنهاجة والزنوج قد أدى إلى تشكيل كونفدرالية عريضة في الصحراء. انظر الباحث الفرنسي كوناي A. cauneille : Les chaanba –leur nomadisme. paris .VII. 1968.p p22-23 .

وقد نشأ الطالب مسعود في أسرة ميسورة الحال حيث كان أبوه عبد القادر من ذوي الأموال، وكان تاجرا كبيرا في مجالات الغنم والقمح والشاي، وامتدت تجارته إلى العاصمة، وذكروا بأنه كان يسوّق بضائعه إلى الخارج، هذا فضلا عن التبادل الداخلي مع التل (نواحي تيارت والجلفة)، حيث كان تجار متليلي أصحاب قوافل سيارة بالسلع المختلفة بين موانئ المتوسط في تونس ومدن الساحل الإفريقي بمالي والنيجر وحتى المغرب[1].

2-النشأة العلمية:

نال الطالب مسعود حظه من العلوم المتداولة في حاضرة متليلي، وخاصة في المسجد العتيق[2]. أين انتعشت الحركة العلمية بعد سنوات عجاف وانقطاع لسند العلم بسبب الهجمة الاستعمارية التي أحكمت الخناق على مدينة متليلي المقاومة، والتي وقفت سدا أمام التوغل الاستعماري قرابة نصف القرن. حيث لم تصل فرنسا إلى عين صالح إلا سنة (1900)[3] بعدما أعاقت قبائل الشعانبة البعثات الاستكشافية والتبشيرية الفرنسية[4] من التوغل في الصحراء منذ أن انخرطت متليلي في كل حركات المقاومة، وكذا مع الدعم المعنوي والإعلامي للطريقة السنوسية بليبيا[5]، هذا فضلا عن انتفاضاتها المتتالية والتي سببت لها الدمار

1- مقابلة مع الحاج بكار عمير أحد أدلاء القوافل المعمرين بين قابس التونسية وزندر بالنيجر. يوم 8 فيفري 1998.

2- المسجد المالكي العتيق بمتليلي بني سنة (550 هـ- 1156م) انظر أرشيف الجامع العتيق ومعلميه ص2.

3 - في احتلال عين صالح ونتائجه انظر انظر مياسي: احتلال الصحراء الجزائرية ص 425.

4- نماذج ذلك كثير مثل بعثة العقيد فلاتر سنة (1881م) انظر بوعزيز:ثورات الجزائر في القرنين ج 1 ص 305/ إبراهيم مياسي: احتلال الصحراء الجزائرية ص 425/ محمد الطاهر وعلي: التعليم التبشيري في الجزائر(1830-1904م)، الجزائر، منشورات دحلب، 1997. ص39.

5- سيكون للسنوسية وحروبها ضد الإيطاليين في ليبيا دور في تهيئة وبعث المخيال الوطني مطلع القرن العشرين بعد حروب العثمانيين ومن بعدهم السنوسيين في ليبيا ، هذه الحرب

والإخلاء فيما عرف بسنوات "الخلية" حيث هُجّرت القبائل وأقفرت الديار، وانقطعت التجارة الصحراوية العابرة لإفريقيا الصحراء والساحل والتي كانت المورد الرئيس لاقتصاد مدينة وبادية متليلي.

مع مطلع القرن العشرين ساد الصحراء نوع من الاستقرار النسبي بعد الإرهاق الفرنسي لقدرات الساكنة، فكان الالتفاف إلى البناء العلمي وتحصين الانتماء الديني من قبل العلماء والوجهاء والأجواد وبقية رجال الميعاد[1]، ففي متليلي قامت العائلات الحضرية بإحياء المدارس العلمية، وفي هذا تُذكر جهود علماء المرابطين[2] (آل محجوب، آل بوقلمونة، آل الحاج قويدر) في استئناف الدرس العلمي، وبعث التعليم القرآني، والقيام بالشؤون القضائية والعدلية للسكان في المدينة.

التي قادها السنوسيون شارك فيها بعض الثوار المتمردين على القانون ،وكانت المساعدات تصل بانتظام إلى ثوار الجهة الغربية من ليبيا ،بحكم العلاقات القوية بين المنطقة ومدن غدامس وغات.وكان لقدوم بعض المنفيين للمنطقة أمثال الإمام محمد الورفلي –وهو من مجاهدي عمر المختار–دور في رسم صورة سوداء عن فضائع الاستعمار ودمويته في قمع الليبيين وملأ المخيال الاجتماعي بكره النصارى. انظر في التواصل بين الليبيين المرحلين وقبائل الشعانبة في العرق الشرقي محمد سعيد القشاط: الصحراء تشتعل (1899-1931)، ط2، بيروت، دار السراج،2003.ص297.حيث يستعرض الأدب المسمى بأدب " مراحيل العطش".

1- الأجواد مصلح يطلق على السادة أصحاب الخيمات والبيوت الكريمة التي لا تطفأ نارها للقرى وإغاثة الفقراء والمعوزين، ورجال الميعاد مصطلح شعبي يطلق على السادة المنتدبين من قبائلهم لإجراء عمليات المفاوضات والصلح وإعلان الحرب و دفع الديات وغيرها، وباللغة المعاصرة هم الدبلوماسيون .

2- قبيلة من الأشراف الحسنيين، استوطنوا متليلي في القرن الرابع عشر، وكان لهم السبق في الحركة العلمية والعدلية، برز منهم علماء وأئمة، من أشهرهم حديثا الإمام محمد بوقلمونة أول رئيس لبلدية متليلي بعد الاستقلال.

كما قامت العائلات الأرستقراطية باستقدام علماء من مدينة "أولف" التي لم تدنسها الأقدام الفرنسية بعد، وكانت المدرسة المالكية بها قوية، وذلك من أجل بعث مدارس المسجد العتيق، حيث احتضن آل "بلحاج عيسى" الفقيه أحمد بوكادي، واستقدم آل "أقاسم" (الطباخ) الفقيه محمد بن عبد العلي بختي، ونفس الأمر فعله آل "فيها خير" مع الفقيه محمد مباركي. فانتعشت الحركة العلمية، التي عضدها الأشراف كسيدي قدور بن عمار (توفي 1942م)، وبنو مرزوق وخاصة الولي الصالح سيدي موسى المقبض (توفي 1927م). وكان الشاعر الفحل بلخضر قدور بن بيتور (توفي 1921م)[1]، خير صادح ومعبّر عن الألق العلمي والنشاط الأدبي والروح الوطنية الوثابة التي رعاها الشعانبة بأنفسهم وأموالهم.

وفي هذا الجو يؤرخ صاحب الكتاب الشيخ مسعود بلعور لشيوخه في الثلث الأول من القرن العشرين[2] وهم:

أ/الطالب محمد كديّد (1870-1945م)[3]، الذي بدأ حفظ العرضة الأولى من القرآن الكريم عليه وعمره سبع سنوات، ويؤرخ لذلك بسنة (1896م).

ب/ الإمام سيدي مولاي محمد بن عبد الرحمن، الذي تولى الإمامة والتعليم بالمسجد العتيق سنوات(1880م- 1930م) وهو من شرفاء متليلي، وسليل

1- بلخضر قدور بن بيتور شاعر مجيد من متليلي(1850-1921م)، عاصر دخول الاحتلال الفرنسي لميزاب ومتليلي، تلقى علومه الأدبية واللغوية بمحاضر المسجد العتيق، رحالة، له ديوان متنوع بين قصائد الغزل والمراثي والوصف، انتقد في شعره الطافح الوضع الاستعماري وسقوط جزائر الأتراك، كما أرخ للفتوحات الإسلامية بالغرب الإسلامي، دعم ومدح زعيم المقاومة الشيخ بوعمامة بن العربي ورثاه في أشعار كثيرة، قام على خدمة ديوانه قيد النشر الأستاذ الجليل الأعمش حسين.

2- التراجم والمعلومات مستقاة من السيرة الذاتية التي كتبها الشيخ بلعور مسعود عن نفسه ونحوز نسخة منها.

3- عمدة التعليم القرآني ،تلميذ الفقيه عبد الله السوسي المغربي، ثم أنشأ مدرسة بحي السوارق، ثم انتقل إلى زاوية سيدي موسى، ثم اشتغل أستاذا للتعليم القرآني بالمسجد العتيق (1920-1942م) وقد توفي سنة (1945م)

سيدي مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله أبو يحي الإدريسي الحسني الذي استقدمه سكان متليلي لتعليم القرآن وعلوم الدين من القرارة، فاستقر بمتليلي سنة (1142هـ 1730م). وتوفي بها سنة (1092هـ/.1780م)[1] .

أعاد الطالب مسعود على شيخه مولاي محمد العرضة الثانية من القرآن، وقرأ عليه كتاب المصباح في الثابت والمحذوف في الرسم والقراءات، وأخذ عنه متن ابن عاشر في المذهب المالكي، والذي هو الدرس الابتدائي في الفقه في محاضر ومساجد مدينة متليلي.

ج/ الفقيه عبد الله السوسي المغربي (توفي 1917م) الذي استقر بمتليلي وهو ذاهب إلى الحج سنة (1880م)[2]، وأنشأ مدرسة بالسوارق بمعاضدة من الشيخ الطيب حاج قويدر، وقد انتسبت لهذه المدرسة العالية التكوين النخبة العلمية أمثال الطالب محمد كديّد والطالب علي بن الذيبة[3]، وقد أخذ عنه الطالب مسعود بلعور علوم العقيدة حيث قرأ السنوسية (أم البراهين)، وعلوم الفقه (شرح ميارة الصغير والكبير على ابن عاشر)، وعلوم اللغة (الآجرومية وشروحها).

1- الترجمة من أرشيفات المسجد العتيق الذي يوجد بعضه عند عائلة وآل مولاي لخضر عبد السلام الإمام.

2- كانت بادية متليلي معبرا لقوافل الحجيج المغربية. انظر نموذجا رحلة العياشي أبو سالم: ماء الموائد (الرحلة العياشية للبقاع الحجازية)، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2011. ج1 ص68.

3- علي بن الذيبة ولد بمتليلي سنة (1880م)، أستاذ التعليم القرآني، درس عند الإمام السوسي، وعلّم القرآن في البادية وفي زاوية عين ماضي بالأغواط، وكذا بضاية بني ضحوة بغرداية ثمانية عشر عاما. واستقر بمتليلي وتخرج على يده كبار الحفاظ أمثال الشريف بكار والعلامة الأخضر الدهمة، ووالدي الحاج عبد الله بيشي والشيخ بوجمعة حوتية وغيرهم .توفي رحمه الله يوم الخميس (19 مارس 1987م) .انظر عبد المجيد بن ذيبة : التعلم القرآني بمتليلي، الشيخ علي بن الذيبة نموذجا. ماستر تاريخ حديث ومعاصر، قسم التاريخ جامعة غرداية (2014).

د/الفقيهان الأخوان عبد الرحمان وعبد القادر صمادي (من أولف): وقد اختصا بعلوم الفقه، وكانا صاحبا الدرس المتوسط فيه، وأخذ عنهما الطالب مسعود الرسالة لابن أبي زيد القيرواني بشرح أبي الحسن، والنفراوي، والجزولي، وكان عمره ثمانية عشر سنة، في مدرسة عريش بوصاق بمدينة متليلي.

ه/الإمام عبد القادر بشقاق (توفي 1934م)، والذي كان مدرّسا للمذهب المالكي بمدينة العطف بغرداية، وهو من عدول المالكية في إثبات الأهلّة القمرية، وقد حصل أن اختصم مع بعض القضاة الإباضية ومع الحاكم العسكري الفرنسي، وصدرت ضده أحكام جائرة، ففر إلى متليلي أين احتمى بقائد قبيلة القماري (علي ابن حروز)[1]، وقد درس عليه الطالب مسعود شروح الرسالة المختلفة في المسجد العتيق.

و/ الإمام الفقيه القاضي محمد بن عبد العلي بختي (توفي سنة 1959م)[2]، والذي دخل متليلي سنة (1924م) وخلف الفقيه أحمد بوكادي في الإفتاء. وكان قاضيا لجبهة التحرير في الثورة.

ز/الإمام الفقيه المفتي "أحمد بوكادي"(1836- 1921م)[3] أصيل مدينة أولف بأدرار الذي انتصب للتدريس والإمامة بالجامع العتيق سنة (1900م)، وأخذ عنه الطالب مسعود الدروس العالية في الفقه (شروح خليل)، واللغة (المكودي على

1- من رواية الطالب محمد بوكادي إمام تمنراست، وكذا من رواية المؤرخ الشعبي الحاج حروز بحوص.

2- الفقيه العلامة محمد بن عبد العلي بن مبارك بن محمد الصالح بختي، ولد بمدينة أولف سنة (1876م)، درس في مسجد قصبة بلال على يد أبيه، وعلماء أولف، وفد إلى متليلي سنة (1924م) ليخلف العلامة أحمد بن عبد القادر بوكادي في التدريس. توفي في عاشوراء (1379ه) وقد ترك فتاوى في نوازل مختلفة. انظر عبد المجيد قدي: صفحات مشرقة من تاريخ أولف العريق.ص81.

3- الفقيه العلامة أحمد بوكادي من مدينة أولف. انظر عنه عبد المجيد قدي: المرجع نفسه، ص88.

الألفية)، والحديث (الموطأ بشرح الزرقاني والسيوطي)، والعقيدة (الجوهرة في التوحيد)، وعلوم الميراث (الرحبية) والعبقري في السهو. وقد خلفه في كرسي التعليم ولده الفقيه الجليل الطالب محمد بوكادي (1900-1976م)، وبعد مدة من التلمذة عليه وتفوقه على أقرانه صار الطالب مسعود معاونا لشيخه في تدريس الناشئة بمتليلي.

و/ الإمام المحدّث محمد مباركي أصيل مدينة أولف (توفي سنة 1960م) ودرس عنده متون الحديث في مجالس العلم بمدارس القصر القديم، فقرأ عليه صحيحي البخاري ومسلم، وسنن أبي داوود، وتحفة الأحوذي على الترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والبيهقي، ورياض الصالحين بشرح ابن علان، وتاج الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري.

كما يذكر أنه طالع في تلك المجالس العلمية فتاوى عليش، وابن حجر الهيتمي، والباجوري، وفتاوى بن الصلاح. وكذا في اللغة القاموس المحيط للفيروزآبادي، والمصباح للفيومي، ومختار الصحاح للرازي، والمفردات للراغب الأصفهاني.. إلخ.

وقد زامله في دراسته عدد من الأعلام مثل: الحاج عومر فيها خير، محمد الشرقي، عبد القادر الوذان، مولاي لخظر سي قادة، الطالب بكار الشريف ..وغيرهم.

كما لازم الشيخ المربي الصوفي الصالح سيدي موسى المقبض المرزوقي، والذي كان له الأثر البليغ في حفظ كيان المالكية في غرداية ضد موجات التنصير والمسخ التغريبي، وهو الذي دافع عن مصالح السكان ضد الجشع اليهودي المتحالف مع الإدارة الفرنسية وأزلامها في المنطقة[1].

3/ السلوك الصوفي :

1- انظر محمد عبد الحليم بيشي: تطور الثورة الجزائرية في ناحية غرداية، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، الجزائر، دار عالم المعرفة، 2015 ص70.

وعلى غرار متفقهة عصره فقد انتسب إلى المشرب الصوفي القادري، وأخذ أسانيد التصوف والسلوك عن أربابه، وكانت له خلوات يقضي فيها أوراده وتأملاته في وادي "تقير" في بادية متليلي، كما كانت له صلات روحية وعلمية ببعض مشايخ المنطقة كالشيخ الحاج أحمد بن بحوص آل سيدي الشيخ، وسي قادة بن معمر الزواي وغيرهما.

وعلى الرغم من خلواته أثناء تصوفه فقد بدت منه صيحة ونزعة إصلاحية نابذة للخرافة والبدعة، حيث استعاد في ذم البدع ما نقله ابن حجر الهيتمي من دواوين السنة: "من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام"، وقولهم: "أصحاب البدعة كلاب النار"[1].

كما كان شديد النكير على الفلكور الذي ألصق بالتصوف من بعض الأتباع الذين لا يحسنون الإتباع، فقد كان يرى أن لجوء العامة إلى مثل هذه الحفلات الجماعية في السماع الصوفي إنما سببه اللجوء إلى تفريغ الطاقة الضاغطة على الأشخاص والمتراكمة من هموم الحياة، ومنه يكون المتنفس الذي ينعشهم. كما كان ينهى النساء عن الاختلاط بالرجال في حفلاتهم وحياتهم العامة، فسطّر لهم برنامجا بالفصل المكاني والزماني بين الجنسين لتجنّب هذا الاختلاط، وعلى الرغم من هذا كله فقد قوبل بالرفض وجُوبه بالنكير، حتى أنه كان يُرمى بالباديسية. كما لم يُعهد عنه تصدّره للمشيخة، فقد كان في جل أوقاته مقطوعا بين المطالعة والذكر والتأليف والتطبيب.

4/رحلاته:

– العاصمة: وذلك في نهاية العشرينيات، وكانت لغرض التجارة، والتقى فيها العلماء الإصلاحيين، وأخذ العلم وبعض الإجازات من أئمة الجامع الكبير وجامع سيدي رمضان بالقصبة أمثال أبي يعلى الزواوي .

1– ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة في الرد على اهل البدع والزندقة.ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1983.ص10.

– رحلة الحج الأولى (1953–1954م) وهي من الرحلات المهمة في تاريخ الصحراء إذ تعد الرحلة الأولى التي سمحت فرنسا بتنظيمها، وقد خرج فيها الأكابر والعلماء أمثال: الطالب علي بن الذيبة، والحاج الرحالة محمد الشايشي، وسلطانا توارق الهقار وآزجر.

– رحلة الحج الثانية سنة (1961م)، وبعد أداء المناسك طاف بكل من بغداد، وزار مقام عبد القادر الجيلاني والإمام أبا حنيفة بالأعظمية، ثم يمم وجهه شطر الشام ولبنان، وجلب من هناك كتبا قيمة في مختلف الفنون تشهد بها مكتبته العامرة.

– المغرب في الستينيات، حيث زار الحواضر القديمة مثل فاس ومكناس.

– تونس: وزار جامعها المعمور الزيتونة، وجلب منها كتبا عديدة.

– رحلة الحج الثالثة والأخيرة سنة (1975م) رفقة ابنه.

5/مؤلفاته:

ترك الإمام مسعود بلعور مؤلفات ومجاميع عديدة وكناشات مختلفة جمع فيها خلاصات آرائه ومطالعاته، كما ترك فتاوى مكتوبة، إضافة إلى تجربته الطويلة في الطب البديل. ومن ذلك:

– مسك الجيوب للعاشق في المحبوب، وهو في التصوف والعقيدة(قيد النشر من دار صبحي بمتليلي)

– دليل القرآن لأهل العرفان بالرد على أهل الزيغان (في العقيدة والكلام)

– الدليل الواضح في التوسل بالنبي والصالح (في العقيدة والتصوف).

– كتاب المنح الإلهية والحكم الربانية(في التصوف والسلوك)

– السيرة النبوية والتاريخ الهجري (سيرة نبوية بتأليف أدبي حديث ضاهى فيه أسلوب العقاد)

– شرح لطيف في بيان الحمد الله (تفسير الفاتحة)

- نشاط العباد إلى خير الزاد (في الزهد والأخلاق)
- شمس اليقين في منهاج السالكين في شروط السلوك وآداب الطريق الصوفي)
- تذكرة الفوائد من النصح والقلائد (مختارات ادبية وأخلاقية)
- مجموع في تاريخ متليلي والصحراء تاريخ محلي لقبائل الشعانبة)

ثالثا: النشاط التربوي والاجتماعي للإمام بلعور مسعود:

أ/- النشاط الدعوي: وقف الطالب مسعود ضد النشاط التبشيري الذي كان يقوم به الآباء البيض من كنيسة غرداية، والذين كان لهم أثر ملحوظ في الرعاية الاجتماعية والطبية للمعوزين والفقراء، حيث كانوا يقدمون وسائل النسيج للنساء، فكان يقوم باستقبالهم ومناقشتهم لمعرفة أهدافهم، وكانت لديه نسخة من الإنجيل، ورغم تعرضه للانتقاد من أقرانه من العلماء، إلا أنه كان يرد بأن الغاية من استقبالهم من أجل محو تأثيرهم على السكان حتى لا يقعوا ضحية وفريسة للتنصير.

ب/-النشاط المسجدي: تطوّع الطالب مسعود بالتدريس والوعظ والإرشاد، بمدينة سبسب- جنوب متليلي- إذ كان إماما للجمعة والصلوات الخمس بمسجدها العتيق مدة طويلة، ثم انتقل لمسجد حي الحريث بسبسب، وظل به إماما للجمعة. كما كان يؤم الناس في صلاة العيدين بالمصلى العام. إضافة إلى صرف وجه نهاره في تحفيظ القرآن الكريم للناشئة، وبقي على هذا إلى غاية وفاته رحمه الله تعالى.

ولنبوغه في اللغة والنحو كان يأتيه الطلبة والمعلمون آنذاك حتى من مدينة غرداية ومن قبيلة المذابيح، فيدرسون عنده في المحضرة شتى العلوم وخاصة النحو، وهذا آخر الخمسينيات كما ذكر ذلك الأستاذ سي حميدة مولاي عمار. كما لم يتوان عن ضيافة الإخوة الإباضية الذين كانوا يزورونه أحيانا ويستدعونه أحيانا من أجل المثاقفة وتبادل الآراء التي تهم الساكنة في وادي ميزاب.

ج/-النشاط الإعلامي: اكتسب الطالب مسعود رؤية إعلامية غريبة في تلك الظروف والسنون (الخمسينيات)، إذ كان يملك العديد من أجهزة المذياع القديمة، ويتابع أخبار العالم من إذاعة لندن[1].كما كان يواظب على متابعة الجرائد الإصلاحية التي تصل لماما إلى مدينة غرداية. وقد مكّنه ذلك من تعبئة السكان مع الثورة والوقوف ضد المخططات الفرنسية الاستعمارية.

كما يُذكر أنه جلب من المشرق الأسطوانات الأولى لترتيل القرآن الكريم (صوت القاهرة) إضافة إلى مجلة الإسلام التي تصدر عن الأزهر الشريف

د/-النشاط الطبي: وبوصية من والده عبد القادر الذي مرض فاكتوى ولم يبرأ من علته، فقد أرشده إلى طلب الطب العصري ، فانتقل في الأربعينيات إلى مدينة غرداية ليجمع إلى خبرته الطبية الشعبية والدينية (الطب البديل، علم الحكمة وأسرار الحروف) الخبرة العصرية فأخذ أوليات التطبيب من الفرنسيين الذين منحوه إجازة في التطبيب، فصار ممرضا ماهرا وطبيبا مبتدئا، ولذلك قصة وهي أنه كان السبب في علاج إحدى الفرنسيات التي عانت من مرض في وجهها وعجزوا عن علاجه مما جلب اهتمامهم به وبكفاءته، فعمدوا إلى إذكاء مهارته بخبرتهم العصرية.

وفضلا عن هذه الوصية من والده فقد رغب في الوقوف ضد المد التبشيري الذي كان يلج بيوت السكان من باب التطبيب، فأراد أن يحارب المنصّرين بهذا السلاح الذي يستعملونه في صرف الساكنة المسلمة عن دينها. خصوصا وقد كان لهم بعض النجاح في مدينتي غرداية والمنيعة[2].

1- كانت أجهزة الراديو قد دخلت الصحراء وانتشرت في أواسط الخمسينيات.

2- في النشاط التنصيري لكنيسة غرداية التابعة لأسقفية الأغواط انظر الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، ص 123.

وقد أسهم في علاج المجاهدين أثناء الثورة التحريرية. وكان مبرّزا في علاج (الكسور، الأضراس، العمليات الخفيفة، الإسعافات الأولية، الأمراض النفسية والعقلية)

وقد أخذ الطب الشعبي البديل عن أساتذته من علماء المرابطين، وكان من طبقة القاضي محجوب سي دحمان[1]، وأخيه سي قدور، كما أخذ الطب الشعبي عن أبيه أيضا، ولعله أخذ عن بعض علماء المغاربة أثناء وفادتهم على متليلي.

ه/-النشاط القضائي: عمل الطالب مسعود في مجال توثيق العقود، وإصلاح ذات البين وفض الخصومات بين الناس، في مدينة سبسب التي كانت تشهد حركة زراعية كبيرة بسبب ضيق الوادي القديم (متليلي) بأهله، وهو ما جعل الوافدين يدخلون في خصومات حول المياه والمزارع والمراعي، وقد مكنته حنكته وفقهه من حل المشاكل حتى لا يلجأ الناس إلى الإدارة الاستعمارية التي حرم الفقهاء في متليلي التعامل معها[2].

و/-النشاط السياسي الثوري: ناصر الطالب مسعود التوجهات الوطنية في الأربعينيات حيث كان من الطبقة المثقفة المؤيدة لتوجهات حزب الشعب الجزائري الذي كانت له خليتان واحدة في القصر القديم، والأخرى بحي حاضور بالحديقة (آل بلخضر)[3]. وعند اندلاع الثورة التحريرية أسهم في العمل التعبوي، وكان أبناؤه بالعاصمة جسر وصل للثورة مع متليلي، وقد كُشف نشاطه الثوري واللوجستي للعدو الفرنسي الذي سجنه وعذبه في معتقل غرداية بعد وشاية من

1- الإمام محجوب عبد الرحمان ولد سنة (1880م) نال حظه من العلوم الدينية بمحاضر المرابطين، ثم التحق بزاوية الهامل القاسمية ببوسعادة سنة (1898م)، وبقي هناك خمس سنوات أيام مشيخة السيدة لالا زينب بنت الشيخ محمد بن أبي القاسم، وبعدها رحل إلى الزيتونة، وعاد لمدينة متليلي ليتولى وظيفة القضاء والشؤون العدلية بين السكان، و كذا التطبيب والتعليم، توفي في (16 جانفي 1976م).

2- انظر عبد الحليم بيشي: تطور الثورة الجزائرية في ناحية غرداية، ص259.

3- المرجع نفسه ص73.

أحدهم، وحكم عليه بالإعدام دون محاكمة قضائية، إلا أن الأقدار صرفت عنه هذا المصير، وبعد خروجه أراد الالتحاق بالجبل، ولكن ضباط جيش التحرير بمتليلي أمثال قرمة بوجمعة[1] وحيجوج بن قومار[2] نصحوه بالبقاء بين أظهر المواطنين للشدّ من أزرهم بعمله التوعوي والتربوي والطبي ودعمهم بالأدوية، وهو ما نجح فيه نجاحا باهر حجز العديد من السكان من السقوط في حمأة المخططات الاستعمارية الفرنسية الرامية لفصل الصحراء عن الوطن الكبير الجزائر.

ز/ النشاط العلمي (المكتبة العامرة)

جمع الإمام مسعود بلعور في رحلاته العديدة الكثير من الكتب المختلفة المشارب من فقه ولغة وتصوف ومعارف حديثة في الرياضيات والفلك وغيرها، وعند التصفح لمختلف العناوين فإن مشارب مذهبية عديدة تملأ الرفوف مما يدل على نزعة انفتاحية في قراءة المذاهب الأخرى، عكس التقليد السائد آنذاك حيث حوت مكتبته حوالي ستمائة عنوان[3]. ومن نماذج الكتب المجموعة:

- البهوتي الحنبلي: كشاف القناع عن متن الإقناع.

1- بوجمعة قرمة: ولد بمتليلي سنة (1930)، جُند بالحرب الهند الصينية (1945-1955)، عاد إلى الجزائر لينظم لخلايا جبة التحرير بالعاصمة، ثم عاد إلى متليلي سنة (1957) ، من رواد العمل العسكري بمتليلي والبيض، تولى قيادة ناحية غرداية سنة (1959)ن وقاد باقتدار العمل الفدائي والعسكري ضد الاحتلال الفرنسي إلى غاية الاستقلال. توفي رحمه الله في 28 أوت 2001.

2- حيجوج بن قومار، ولد بمتليلي سنة 1923م، من عائلة بدويه غنية ، تشرّب الوطنية، وانتظم في سلك جيش التحرير ويلقب بزين الدين، من الراديكاليين الثوريين، تولى تسيير العمل العسكري ببادية متليلي متابعا للولاية الخامسة، أسر بالمنيعة سنة (1961) ولكنه فر من السجن بعمل أسطوري، توفي سنة (2012).

3- متابعة شخصية لمكتبته التي تفرقت للأسف الشديد بين ورثته في متليلي وغرداية والجزائر العاصمة.

– مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره في طبعته الأولى للمطبعة الجزائرية الإسلامية سنة 1937.

– الدميري: حياة الحيوان الكبرى (طبع سنة 1315هـ)

– عبد الله حسين: حساب الطالب (السنة5/الصف 7/1966)

– صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن (1965م)

– الهيتمي: الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة.

رابعا: كتاب مسك الجيوب: نموذج في التأليف.

مسك الجيوب للعاشق في المحبوب قطعة في التصوف الأخلاقي السُنيّ جمعها مؤلفها الإمام العلامة مسعود بلعور من أفنان كتب التصوف، ومدونات الأخلاق الإسلامية، ومجاميع السيّر، وحلاّها بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية عن أكابر الأمة وأتقيائها وصلحائها ومُربيّها من المتقدمين والمتأخرين رحمهم الله أجمعين. فما هو جديده؟

إن جديد الكتاب متعلق بالسياق التاريخي الذي كتب فيه (ستينيات القرن المنصرم) حيث وفدت التيارات المادية والتغريبية على الناشئة التي تدرس العلوم العصرية المشحونة بنفثات الفلسفات المنحرفة، مما جعل بعضها يقع فريسة لها نتيجة لنفاد الحصانة الدينية والأخلاقية في مجتمع يحيا طور الانتقال الحضاري، ولمّا يبرأ بعد من علل الاستعمار.

ولأجل ذلك كان الكتاب محاولة للعودة إلى القيم الأصيلة الناظمة للحياة، والتي بنيت عليها الأمة الإسلامية، قيم الأخلاق والمروءة والدين الموجبة لسعادة الحياة، والمحصّلة لطمأنينة الإيمان، والمورثة لبرد اليقين.

كما أن الكتاب يرمي إلى استعادة البناء في التربية الروحية في وقت عزّ فيه المربون وقلّ فيه الشيوخ الواصلون، نتيجة انكماش المدارس التقليدية وضمور

الزوايا الربانية، في سنوات خدّاعات كثر فيها أدعياء التصوف الذين اشتكت منهم الجيوب إلى علاّم الغيوب.

عالج الكتاب بعض القضايا الخلافية بين المتصوفة والفقهاء (التوسل، العلم اللدني، الكرامات) وانتصر فيه المؤلف لمذاهب أهل السنة والجماعة، كما حاول أن يقف ضدّ المفاهيم الخاطئة التي نُسبت للتصوف السني في الحملة التي قادتها الحركة الوهابية ضده بغاية حماية التوحيد من أدران الشرك والانحراف التي ألصقت به وهو منها بريء.

كما لم يغفل الكتاب استعادة مفاهيم التوحيد الأشعرية في وجود الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى ردا على مقالات الكنيسة الكاثوليكية الناشطة في مدينتي غرداية والمنيعة حيث كانت أفواج المبشرين من الآباء والأمهات البيض لا تكف ولا تكلّ ولا تمل عن التسلل إلى أذهان الساكنة لصرفهم عن المعتقد الحق والشريعة الحكيمة في دين الإسلام القويم.

تنوعت مصادر الكتاب من القرآن والسنة وموسوعات التصوف والعقيدة، ولكن جلها كان من كتب أبي حامد الغزالي، وأبي طالب المكي، وعبد القادر الجيلاني، والشاذلي، والسنوسي، وهي كتب متداولة بالمدارسة في محاضر ومساجد مدينة متليلي العامرة[1].

وفاته رحمه الله تعالى:

بعد عمر طويل قارب القرن (97 سنة) وصحة كاملة إلى الأيام الأخيرة وبعد أن عاش زاهدا مشتغلا بالعلم وفاضلا في المجتمع توفي الإمام مسعود بلعور وهو يتلو القرآن بمستشفى متليلي نتيجة مضاعفات صدرية، ودفن في مقبرة الرزيقي مع أخيه أحمد الذي توفي قبله بيومين فقط، وذلك في صائفة 1986م. ويحكي العارفون به أنه كان مقتصدا متقللا في طعامه الذي كان في الأغلب من القمح

1- من مقدمة الكتاب مسك الجيوب للعاشق في المحبوب (تحقيق محمد عبد الحليم بيشي) صص5-7.

(الدشيشة) وحليب المعز والتمر، إضافة إلى مواظبته على الصيام، وهو ما حفظ له قواه الجسدية والعقلية لآخر أيامه.

والخلاصة: أن الجهد العلمي والتعليمي التي قاده الإمام مع ثلة من معلمي القرآن الكريم الذين صابروا على التعليم في غسق الظلمة الفرنسية قد أنشا جيلا متشبعا بهويته الدينية وانتمائه الوطني مما جعله يتمرد على الوضع الاستعماري الحالك، وهو ما يفيد اليوم في العض بالنواجذ على هذه المسالك التعليمية من أجل الوقوف أمام المسخ الحضاري الذي يبتلع الأمم أمام الجرافة الغربية التي أكلت الزرع وحلبت الضرع، وحرثت ظاهر الأرض وامتصت باطنها، ولا سبيل للدفاع عن المصالح القومية إلا بتفعيل الأدوية المضادة المبثوثة في التراث الثقافي الذي ضمن للأمة البقاء في هذه السنين العجاف.